الشيخ بدر الدين الحسني

ولد سنة ١٢٦٧هـ - ١٨٥٠م وتوفي سنة ١٣٥٤هـ — ١٩٣٥م

كان أول ما وصل إلى أسماعنا ونحن صغار نطلب العلم في طرابلس الشام من أخبار العلم والعلماء خارج طرابلس — أن في دمشق عالماً مغربياً اسمه بدر الدين وانه لا نظير له في ورعه وتبحره في علوم الحديث وكان هذا في أواخر القرن الماضي الهجري ، فالشهرة بالعلم والورع نشأت مع المترجم منذ صغره . ولهذا يظن الناس أنه بلغ المئة مع أنه لم يتخط السابعة والثمانين من عمره ؛ والسبب في ذلك ما قلناه من ولادة شهرته معه صغيراً ، فطال بايام الصبا عمره حتى طبق الخافقين ذكره

وطالب العلم في عصرنا هذا يحار في أية مدرسة يدخل . وأيّ نوع من العلوم يطلب . أما الطالب في أواسط القرن الماضي — إذا كان في مثل نشأة الشيخ وتربيته الدينية — فمدرسته هي المدرسة التي تخرج فيها (ابن الصلاح) و(أبو شامه) و(النووي) و (الحافظ المزي) و(السبكي) و (ابن حجر) وأضرابهم ممن عَمَرُوا دار الحديث الاشرفية بالعبادة وذكر الله وبالعكوف على التأليف ونشر العلم وتربية المريدين . وقد خلفهم المترجم في مدرستهم هذه واستقام على طريقتهم في نشر علوم الشريعة أو نشر الثقافة الاسلامية القديمة (كما يقولون اليوم) عاضاً عليها بالنواجذ . لا يعدوها إلى غيرها . ولا يطمئن قلبه إلى العمل بسواها : فَحَفِظَ القرآن الكريم وطائفة كبيرة من المتون في العلوم المختلفة . ودرس تلك العلوم درس تدقيق وتحقيق على علماء دمشق . وأكبر أساتذته في ذلك العلامة أبو الخير الخطيب . وبعد أن نال حظاً وافراً من جميع العلوم الاسلامية انجذب بنور تذوقه الله في قلبه الى علم الحديث . فاستظهر الكثير منه بمتنه وسنده ومتعدّد طرقه ورواياته . وكلما توغل في هذا العلم ازداد حرصاً عليه وولوعا به . حتى صدق عليه ما قلته بلسان حاله:

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلُّ العلوم سئمتها فجديدها بال رثيث
إلا الحديثَ فانه مثلُ اسمه أبداً حديث

أحبّ الشيخ علم الحديث وأحب العزلة عن الناس ليخلو بذلك الحبيب . وأحب الصوم عن كلام الناس ليفرغ قلبه إلى مباغمة ذلك الحبيب فلزم غرفته في المدرسة الاشرفية فكان لا يبرحها إلا عند إرادة النوم فينام قليلا ثم يستيقظ فيتهجد ويغدو صائما الى المدرسة . فيقرأ العلم ويعلمه ويرجع بعد العشاء إلى داره . وهكذا قضى حياته إلا بضع سنين من أواخرها اضطره المرض إلى ملازمة داره والاقراء فيها

وقد عهدنا الشيخ يكره التوسع في كلام الناس . وكثيراً ما قاطع محدّثه وصرَفه عن الاطالة خشية أن يقع في غيبة أحد أو في باطل من القول أو في ما تعقبه تبعة أو مسؤولية . وإذا سئل هو عن مسألة أجاب بأوجز جواب . وربما ابتدأ الجملة ثم سكت عن إتمامها اعتماداً على فطانة السائل في فهم الباقي

ومن كان هذا شأنه في التأثم من الكلام العادي كان أشد تأثماً في وضع التصانيف التي يبقى خطرها — إذا هفا فيها صاحبها — ما بقي الدهر . ولهذا رأينا شيخنا بعد أن صنف طائفة كبيرة من التصانيف عاد فتناساها ولم يأذن بطبع شيء منها . وشأنه في ذلك شأن الكثيرين من علماء السلف الصالح

وكأن المترجم اكتفى عن تصانيفه بتلاميذه الكثيرين الذين حملوا علمه وطريقته الدينية إلى تلاميذهم وهؤلاء إلى تلاميذهم فلا ينقضي زمن حتى تعم طريقته التعليمية الدينية دمشق وملحقاتها كافة .

ومهما ذكرنا من فضائل المترجم ومناقبه الجمة فان له منقبة فوق كل منقبة . وربما لم يشاركه فيها إلا الافذاذ من علماء القرون الوسطى : تلك هي دروسه الجمعية في مسجد بني أمية .

كنت أحضر تلك الدروس والخصها وأنشرها تباعا في جريدة (الشرق) التي كنت مدير تحريرها خلال الحرب العامة . ولقد نشرت اول درس منها في اول عدد صدر من تلك الجريدة بتاريخ ٢٧ نيسان سنة ١٩١٦

وكأن الشيخ في دروسه هذه كان يؤدي لاهل هذا العصر رسالة (ابن الصلاح)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و (النووي) و (السبكي) و (ابن حجر) التي استوحاها من ارواحهم في مدرسة (دار الحديث الاشرفية) من دون زيادة عليها ولا نقصان منها ومن دون أن تشو بها شائبة من (معلومات) العصر الحاضر اللهم الا كلمات (البيرة والشمبانيا والويسكي) التي كان شيخنا رحمه الله يذكرها احيانا في درسه بمناسبة النهي عن المسكرات مطلقا . وان قوما يسمونها بهذه الاسماء التي لاتحول دون تحريمها . فهي حرام وان لم تسم باسم الخمر .

كان الشيخ ينطق بهذه الكلمات فيستملح ذلك منه وينظر مستمعو درسه بعضهم إلى بعض متعجبين من تلك الكلمات الاعجمية كيف اقتحمت تلك الاسوار المنيعة التي اقيمت بين الشيخ وبين هذا العالم العابث اللاهي

وكان الدرس الاول الذي لخصته من (دروس الجمعة) يتضمن الكلام على (الجهاد) و(الفتن) و (دخول الحمامات) و (الاصابة بالعين) و (التداوي) بمختلف الادوية وخاصة بالحبة السوداء . وهي المسماة ايضاً حبة البركة والشونيز . وقد وصف الشيخ فوائدها وما ذكره الاطباء في الطب القديم من منافعها ثم حض على التداوي بها وأشار إلى أن في طبها ما يغني عن طب غيرها

فقلت في التعليق على قوله هذا : « بابي انت أيها الاستاذ ونفعنا الله بعلومك وببركات قلبك الطاهر ؛ ومن أين لأهل زماننا اعتقاد مثل اعتقادك ، وايمان مثل إيمانك فتفيدهم الحبة السوداء ، وتكشف عنهم البلاء ، وتغنيهم عن طب الأطباء . حقاً إن الاعتقاد واقتناع النفس كثيراً ما أفاد في شفاء الامراض ولا سيما الامراض العصبية كما حققه حذاق الاطباء ، الذين أصابوا كبد الحقيقة المنبثقة من علم سيد الانبياء » . وقد ختمت هذا الدرس بعد نشره في الجريدة بقولي : (إنني — وأنا الخص قول الاستاذ في الجامع — شعرت بشيء من الالم وخدر الاصابع فانقيت القلم من يدي و كففت عن الكتابة . واما الاستاذ فبقي يواصل الكلام من دون تلعثم ولا توقف ولا إحجام . ومدة درسه عادة ثلاث ساعات : يحذر الأستاذ فيها المسائل حذراً لا يتخلله سكوت ولا يقاطعه من الحاضرين سؤال . وكل المسائل التي يلقيها تكون تعليقاً على حديث البخاري الذي افتتح به الدرس . وهو يجعل بين تلك المسائل تناسباً دقيق اللحام . ويفرغها في أسلوب حسن السبك والانسجام ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يذكر حديثاً ما لم يروِ سنده ويعيّن مأخذه ، فمستمع درسه يعجب من ذلك الاستحضار كالعجب من فصاحة ألفاظه وصحة تراكيبه حتى لو أمكنت كتابة ما يُمليه الاستاذ في درسٍ واحد ثم طبع ذلك الاملاء ونشر بين أيدي الناس لكان لهم منه كتاب يبلغ حجمه حجم عشرة أجزاء من القرآن تقريباً وقد تضمن أبحاثاً جمّة في أنواع العلوم الاسلامية القديمة اه) .

وقد راجت مقالاتنا في (دروس الجمعة) بين القراء وأعجبهم طريقة إيرادها وحسن التصرُّف فيها ، وكنتُ آخذ من فم الشيخ الحديث أو الخبر أو المقولة الجميلة « فأمد بعض مسائلها التي تهمّ الجمهور مدّ الأديم العكاظي » — كما قال الأستاذ صاحب المنار في وصف تلك الدروس — وأعلّق عليها وأقتلها شرحاً وتأويلاً مما يحبُّ الناس أن يسمعوه في ذلك العهد الرهيب .

وكان أشدّ الناس إعجاباً بتلك الدروس ورغبة في مطالعتها أولئك الذين يسمعون بشهرة الشيخ ولا يتيسر لهم استماع دروسه ومنهم إخواننا فضلاء النصارى في البلدان المختلفة حتى أرسل غبطة البطريرك الموراني أنطون عريضة (وكان يومئذ مطراناً في طرابلس) رسالةً إليّ راجعني فيها ببعض ما قلته في (دروس الجمعة) وافتتح الرسالة بقوله : (منذ ظهرت جريدة الشرق فأخذت أطالعها كنت أجد لذة في قراءة مدروجاتها الدينية — الادبية لا سيما التي كانت تصدر عن شيخكم الجليل البدر الحسني العالم الفاضل لما كان يضمنها من التعاليم المفيدة الموقعة على ظروف الزمان والمكان والأشخاص . وكأنني به كان يردُ تلك التعاليم من مناهلها العذبة : كالنحل يجني عسله من الازهار الطيبة وقد وقع نظري على تعليمه المدروج في العدد (١٧٠) فألفيته محتوياً من الاقوال ، على الدرر الغوال : كعمل الاحسان والنهي عن الاذى الى آخر ما قال .

* * *

هذا وصفٌ للدروس العامة التي كان يُلقيها شيخنا البدر رحمه الله أيام الجمع وقد بقيت لدينا بقية صالحة تصف دروسه الخصوصية في مدرسة دار الحديث الاشرفية وتصف مبلغ علاقته باللغة والادب أرجأناها الى العدد الآخر .

« المغربي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net